عهد ختام

للأستاذ محمد محمود جلال بك

وثمة صلة تخفى على النظرة العابرة . تلك صلة القرية وقرباها . (برطباط) بلد الشاعر التى هام بها وكانت فى مجموعها مصدر أنسه ، فصديقاه منها ، ومعالمها أحب المعالم إليه ، وعشراؤه الذين يعمرون ندوته من أهلها . إذا غاب عنها ونزل القاهرة دعاها هاتفا :

يا (برطباط) سلام الله أهديك ... أنت الحبيبة قلبى ليس يسلوك
يا قرة العين يا دار الخليل ويا ... مهد الأحبة ما حب كحبيك

وإذا طال مقامه عما قدر ، وقد لاينزل القاهرة إلا لعلاج أو لضرورة عمل ، عزفت عينه عن مباهجها ، ورأى فى (برطباط) شخص حبيب يرفع إليه اعتذاره :

حالت صروف الليالى دون مجتمعى ... ياليتها ما مضت عنا لياليك
مرت سراعا وصارت إذ مضت وقضت ... على حشاشة أنسى بعد أهليك

ولم أظفر بنظير — فيما عرفت وقرأت — لهذا العمق فى حب المكان — ولعل ما أشرت إليه من إرهاف حسه ، وحب الخلوة أثر فى ذلك :

مامصر يوما وإن جلت محاسنها ... أبهى وأحسن عندى من مرائيك

وشاعرنا فى هذا الوضع يشارك المرحوم رفاعة بك الطهطاوى إذ يقول فى مقدمته « الوطنية المصرية » يشير إلى طهطا « ولأرضك حرمة وطنها ، كما لأمك حق لبنها ، ومن طبع الأحرار الحنين إلى الأوطان ، وإن ألبستنى المحروسة (القاهرة) نعما »

ولا شك أن الوفاء أظهر وأوضح حين يتصل بالقديم من المنازل والأول من الذكريات ، فلكل واحدة من أولئك فضل الانبثاق الماطق ، وأول الإشراق للتقدير الشخصى

يقولون إن الرسول الكريم — وهو مثل الكمال الإنسانى عليه صلاة الله وسلامه — نظر إلى معالم البلد الحرام أول هجرته وقبل أن يستدبر ثم قال « اللهم إنك أحب بلد إلى الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما هاجرت » . وهذا أرق تعبير وأدق ، وهو لم ير إلى ذلك التاريخ إلا جفوة منكرة من أهلها . ومعالم احتفظت بهول المذاب للنفر الفر من صحبه الكرام لا لشئ إلا أن يقولوا ربنا الله . ولكنه يعرف للبلد الذى نشأ فيه حرمته وحقه ، ولاينساه حتى وهو مقبل على يثرب حين ينتظره الأنصار الفادون وحيث الظل والماء

وقد يبلغ القلق من شاعرنا — وهو فى عصر المواصلات السريعة — حدا تتراكم به هواجسه فتظهر على فمه شعرا يخاطب بلده :

عبد الحفيظ أبو السعود

بالله هل أحدثت أيامنا غيرا أم أنت باقية ترجين راجيك
عمت خطوب الزمان الخلق كلهمو فالله أسأله منهن يحميك

أما (برطباط) هذه فمن أقل البلاد حضارة ، وأنأها قرية من مركز مغاغة مديرية المنيا — غربي بحر يوسف ! وهذا مظهر أرقي للوفاء ؛ ودليل قاطع على النسبية والشخصية في النظرة والحكم

حدث سنة ١٨٧٠ وقبيل سقوط باريس أن جمع الأديب الشاب Alexandre Ffan طرفا مما طبع من القطع التمثيلية ودواوين الشعر مما يرضي ذوقه . وأنفق أكثر ما كسب من مال في تجليدها تجليدا فنيا رائعا ، ووفق إلى دار صغيرة في الضواحي حيث رتبها ، كما نسق سكناه تنسيقا أنيقا ، وما كاد يفرغ من كل ذلك حتى فاجأه الحرس الوطني يطلب إليه الرحيل لاقتراب جيوش الألمان ! ذعر الشاب وقد حددوا له أسبوعا قال إن هذه الفترة قد لا تكفي لمجرد البحث ! وفي اليوم التالي جاء الحرس مرة أخرى يحدد له أربعا وعشرين ساعة !! شده الرجل فودع بيته وماحوى . وفي حقيبة صغيرة وضع مايحتاج إليه وآوى إلى أول فندق ثم أصبح وهو في الدار الآخرة ! — أسلم روحه بعيد أن أسلم ماله في هذه الدنيا !!

° ° °

وبقدر وفاء شاعرنا الفقيد كان ألمه لما يلاقي من نكران أو يلمس من جحود ، فيقول في قصيدته الطويلة تلك :

غاض الوفاء فلست ألقى صاحبا إلا بغير فضيلة ووفاء

ولكنه مؤمن تقي . نشأ في بيئة تقوى . كان أبوه من أعلام المروءة وأهل الرأي في بلده . فتسمه في أواخرها يقول :

ولقد شقي نفسي وأسفر همها أن كل شيء صادر بقضاء

فهو يثور قضاء لحق المروءة عليه وترجمة لوفائه ، ثم يعود ملتمسا عذرا لما في الكون من إنسان وحادث ، ولما تمر به الدنيا أو يمر بها من تفاعل ، يرجع بهذا إلى شيمة الرضى وهي وليدة التسليم لبدع الكون وما قسم من حظوظ

مررت مع صديقي أحمد الأزهري ذلك العام ذاته سنة ١٩٤٦ بحقل للقطن استلفت منا النظر ، فشجراته تستطيل على ما في الحقول المجاورة ، وعهدنا عمدن الأرض واحد ! واسترعى الانتباه منا قلة مايحمل من ثمرات بينما تلك القصار تنوء بما حملت ، وتساءلنا فعرفنا أن الأول تجربة للقطن « السكلاريدس » وأما باقي الحقول فمن القطن « الأشموني » قلت أيها الصديق .. أماتذكر أقرب مايتمثل به هاهنا ؟ ولعله أقرب كذلك إلى البر .. قال ما تذكر ؟

قلت ذلك قول صديقنا الفقيد « أحمد توفيق »

إن راح قوم للسماء بحظهم فالحظ أسبق ما يكون ورائي
لا غرو أن نال الثريم مكانة ما نالها ذو حكمة وذكاء
فالغصن ينمو وهو خلو من جنى وتراه يثمر عن قليل غناء

ألا ترى في هذين الحقلين المتجاورين بل المتلاحقين وما بينهما من فارق . مسرحاً تتمثل فيه هذه الحكمة . وتمثل فيه هذه الرواية ؟ !

ذكرت هذه الأبيات مرة على مسمع فقيد العربية الشاعر الخالد أحمد شوقي بك منذ ربع قرن وكنا نسير على شاطئ البحر بكازينوسان استفانو فوقف يستعيدها ويستفسر عن قائلها ، وقد أعجب بالمعنى وترحم على « أحمد توفيق » حين علم أنه ارتحل عن دنيانا باكرا

وكذلك كان حظها من تقدير الصديق الأديب واصف غالي باشا وهو حجة في الذوق - سماها بين أشياء « لؤلؤة البحيرة » وهو المنتزه المشهور في جنيف

فلم أنس الصديق الراحل على شاطئ بحر أو بحيرة ، في بستان أو في حقل ، ولم تفارقني ذكراه في صحة ولا علة ، بين كروب أو في سرور ، ولكني حقا نسيت وسانه سنين فلم أنشر فضله ولا أعلنت عهده حتى ذكرني صديق كريم على شاطئ البحر في بورسعيد سنة ٤٣ ، ثم طوت المحن صحيفة الازدهار من الذاكرة حتى نشرها فبعثت بأول البحث إلى صديقي وأستاذي صاحب الرسالة وهو عندي أرعى الناس لعهد وأبر الأدباء بالبر وأكبر الإخوان هونا على خير

ولعل خير ما أكرم الله به الذكرى أن جعل « الرسالة » رسالة الطهر والخلق المتين — مظهرا لها ، كما كان لقرائها الأكرمين تقدير ما راقهم وغض الطرف عما بها من قصور

دبغون

محمد محمود جلال